

معاني الفلسفة

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تفضل صديق الأديب الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فكذب عن كتاب « معاني الفلسفة » كلمة ، فلا يسمنى إلا أن أشكره على ذلك ، فقرأه الكتاب دليل على العناية ، ونقده أدل في الرعاية .

وصديقنا يمتاز بمصلحة حميدة هي التواضع ، فما كاد يقرأ الراى الذى دعوت إليه من أن كل إنسان ما دلم يفكر فهو صاحب فلسفة ، حتى نظر إلى نفسه فأدرك آخر الأمر أنه « كسكل إنسان عادى ليس فيلسوفاً مشتغلاً بالفلسفة . وأدرك أن نظرة كل إنسان إلى الحياة لا تسمى فلسفة ، ولا يسمى صاحبها فيلسوفاً » .

ولا شك عندى أن التواضع هو الذى صرف الأستاذ عبد الغنى عن الانتساب إلى الفلسفة ، والدخول في زمرة الفلاسفة ، لأنه يقنع بصحبة الأدب والانتساب إلى الشعراء ؛ كأنه يريد أن يقول إن الشعر والفلسفة بتمازجان فلا يلتقيان ولا يجتمعان ، ولهذا ضرب المثل بشاعرين وقال « وإلا لكان زهير بن أبى سلمى الشاعر الحكيم فيلسوفاً بسبب هذه الحفنة من النظرات التى وضعا في مملقته ، أو كان أبو العلاء الممرى فيلسوفاً بما له من وجهة نظر خاصة في الحياة » .

الشعر لا يتنافى مع الفلسفة ، فقد عبر الفلاسفة الأقدمون عن آرائهم نظماً ، وفي اليونان كثير من الفلاسفة سجلوا فلسفتهم في قصائد ، مثل اكسانوفان الذى دعا إلى الوحدةانية ، وبارمنيديس صاحب الفلسفة المثالية . وإذا كان الأمر كذلك فلم يجد كثير من النقاد بأساً أن يسموا أبا العلاء الممرى فيلسوفاً ، حتى لقد اشتهر بفيلسوف المعرة ، وجرت هذه العبارة على الألسن وشاعت بين الأدباء .

وعندى أن النزعة الجديدة التى نجدها عند فلاسفة اليوم

من الاتجاه نحو تعريف الفلسفة بمعناها الواسع ، فتشمل جميع الناس والخلاف بينهم في الدرجة ، ومن الانصراف عن المعنى التقليدى الذى ساد في العصور القديمة والوسطى ، هذه النزعة ترجع إلى قرين من الزمان . ذلك أن ديكرت ، أبا الفلسفة الحديثة ، دعا في القرن السابع عشر إلى أفكار جديدة ، كانت أساساً للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والعقلية التى نحيهاها الآن . فهو يستهل أعظم كتبه أثراً ، مقال عن المنهج ، بقوله : « العقل السليم أكثر الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوى » . وإعاقيق الخلاف بينهم في المنهج الذى يسلكونه في التفكير . ولقد أدت هذه الدعوة إلى المساواة القائمة على أساس من المساواة في العقل ، إلى الثورة الفرنسية التى نشبت تطلب الحرية ، والإخاء ، والمساواة . ونجحت الثورة ، وأصبحت المساواة في الحقوق السياسية أمام القانون حقيقة ثابتة اعتنقتها جميع الدول ، وقامت عليها الدساتير .

أليس غريباً بعد ذلك أن نبيح الحقوق السياسية لجميع الناس ، ثم نقصر حق التفكير على بعض الناس دون بعضهم الآخر ، لأن التفكير هو النظر ومعرفة حقائق الأشياء ، فيترتب على ذلك سلوك كل إنسان في الحياة بمقتضى تلك المعرفة ، ولا يهمنا أن يكون ما يعرفه زيد صحيحاً أو فاسداً ، وإعناهمنا أنه يعتقد بما يعرف ، وأنه يزعم أنه يعرف .

وهل يوجد من هو معصوم من الخطأ ، أو يبلغ مرتبة الكمال في التفكير ؟ .

واقدر كان هذا التعريف مقبولاً عندما كانت الفلسفة تشمل كل فرع من فروع المعرفة ، أو بمعنى أصح عندما كانت العلوم فروعاً من شجرة الفلسفة . فلما بدأت العلوم تستقل وتنفصل واحداً عن الآخر ، لم يبق للفلسفة موضوع في زعم بعض المفكرين ، وأن موضوعها عند البعض الآخر هو البحث في العقل ، ذلك الذى يبحث في العلوم نفسها وفي المسائل الإنسانية التى تتعلق بالسلوك وقيمه من خير وشر .

فإذا كان الأمر كذلك فقد ارتدت الفلسفة إلى ما كانت تبحث فيه أيام سقراط ، إذ انصرف عن البحث في الطبيعة إلى

البحث في الإنسان .

ولذا قيل إن سقراط هو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض . فإذا عرفنا ذلك لم نعجب إذا رأينا سقراط يعلم حكمته في الأذقة والملاعب والأروقة وفي كل مكان ، ويلقيها على كل إنسان . ذلك أنه كان يمد المعرفة صادرة عن باطن النفس ، ولهذا يمكن أن ينمط المرء على نفسه ويتأمل فيها ليصل إلى الحقيقة ؛ وهذا هو السبب الذي من أجله اتخذ الشعار المكتوب على معبد دلفي « اعرف شعار نفسك » شعاراً له .

فالفلسفة السقراطية لم تقصر هذا الفن على فئة دون فئة ، بل ذهبت إلى أنها حق مشاع لكل إنسان ، يهتدى إليها بالتفكير والنظر .

ولقد كانت الفلسفة في عهد سقراط حية ، تدور على الألسنة وتنبغ حياة الناس في أعمالهم .

وهذا هو الذي نريده ونرى إليه : أن تكون الفلسفة حية تخرج من « الأبراج العاجية » حيث تنحصر في اصطلاحات يعلم الله إذا كان أصحابها يفهمونها أو لا يفهمونها ، لتنزل إلى ميدان الحياة ، فإن كانت جذيرة بالوقوف على أقدامها بحيث تقبلها « العقول السليمة » التي حكى عنها ديكارت ، كانت جذيرة بالحياة والرأى الذي أدعو إليه الآن من إشاعة الفلسفة في كل إنسان ، هو أجدر الآراء ملائمة للمصر الذي نميش فيه ، عصر الديمقراطية والحرية .

ومهما يكن من شيء فالسألة مسألة خلاف بين القديم والجديد : رأى القدماء أن الفلسفة جماع الأفكار المنظمة عن الكون والإنسان ، ورأى كثير من المحدثين أنها الأفكار عن الكون والإنسان ، أما تنظيمها باصطلاحات خاصة وبشكل خاص فليس هذا ضرورياً .

ذكر الأستاذ آدم نو كس ، أستاذ الأدب بجامعة أكسفورد في مقدمة كتابه عن أفلاطون وكيف ينبغي أن تقرأ محاوراته ، يقول ما نقواه : إن الذين كانوا يقرءون أفلاطون كانوا يهدفون طول الوقت إلى استنبط قصده وفكره ، ويحملون النصوص فوق ما تطبق . وليست هذه الطريقة هي أجدر الطرق في معالجة

كبار المؤلفين . ولن تكون هذه الطريقة هي الطريقة المثلى لفهم شكسبير مثلاً ، ولو أنه كان فيلسوفاً كبيراً على طريقته . ولكنه لم يكن الفيلسوف صاحب المذهب أو الفيلسوف قبل كل شيء .

« Though he was a great philosopher in his way too, But he was not systematically or primarily a philosopher. »

فالأستاذ آدم نو كس يمد شكسبير فيلسوفاً ، وفيلسوفاً على طريقته الخاصة ، وهي أن لكل إنسان نظرة في الحياة . ولا يمد فيلسوفاً على المعنى الضيق المصطلح عليه .

وهو كذلك يمد أفلاطون فيلسوفاً حسب النزعة القديمة ، ويريد أن يجعل منه أديباً فناناً قبل أن يكون فيلسوفاً ، لأن محاوراته تمتد من روائع الأدب والفن الرفيع .

وإنى أعتقد أن الأستاذ عبد الضي لو عاد إلى نفسه وتأمل فيها على الطريقة السقراطية لتبين له أنه على هذا المعنى ، فيلسوف ... ولكن إلى حد ما

أحمد فؤاد الأهواني

طبعة الرسالة :

تقدم إلى عشاق الأدب

وحى الرسالة

في مجلدين

يطلب من دار الرسالة

ومن المكتبات الشهيرة

ثمان كل مجلد ٤٠ قرشاً عدا البريد